المبحث الرابع

الواو الفصيحة

أعني بها الواو المفصحة عن معان مقدرة قبلها ، إيماء إلى أنها من الكثرة بحيث لا يحيط بها الوصف ، أو مما لا يتعلق بذكرها غرض ، فيكون للإيجاز بها من البلاغة ما يقصر الإطناب عنه ، وهذا هو سر فصاحتها ، «وهي لا تقع إلا في كلام بليغ» [1] ، هكذا قال الزمخشري عن أختها الفاء ، التي أومأت إلى المعطوف عليه المقدر ، والواو والفاء في هذا المعنى سواء ، وإذا كان الكثيرون يختصون الفاء بهذا الاسم فإن بعض المحققين كالشهاب الخفاجي أطلقه على الواو أيضًا لتحقق معناه فيها[2] .

ومهما اختلفت تعبيرات المفسرين في هذا الموضع ، من القول بأنه عطف على المعنى ، أو العطف على مقدر ، أو على محذوف ، ومهما اختلفت تقديراتهم للمعاني المطوية التي ألمحت الواو إليها ، فإن ذلك كله لا يهدف إلا إلى شيء واحد ، هو تقريب هذه المعاني بألفاظ تفهم الغرض ، وتقترب من المضمون ، لكنها ليست مما يضاف إلى قول القائل . وقد فرق عبد اللطيف البغدادي فيما نقله السبكي بين نوعين من الإيجاز : الأول ويسمى الاختصار ، وهو : «أن يقتصر من أشياء يقصد التعبير عنها على ما إذا صرح بلفظ فُهم به الباقي ، ويقابله التطويل»[3] ، والآخر : الإضمار في مقابلة التفصيل ، وهو «أن يسكت عن أشياء اتكالاً على أن السامع يأتي بها من قبل نفسه ، ويضيفها إلى التي نطق بها القائل لوضوحها أو لقرينة حالية» [4] .

---

(١) انظر الكشاف ٢٨٤/١ .
(٢) راجع حاشية الشهاب ٣٧/٧ ، ٣٨ .
(٣،٤) راجع عروس الأفراح ٢٠٢/٣ .

والاختصار بهذا المعنى هو الذي يمكن إطلاقه على ما نحن فيه ؛ لأن الألفاظ المقدرة لا يمكن أن تصل مهما اجتهد قائلها إلى المستوى الذي يتسق مع كلام رب العزة ، ولا هذا مما خطر ببال مفسر ، وإنما هي محاولة لكشف هذه المعاني المضمرة ، ولهذا سماه الزجاج العطف على المعنى . يقول الزجاج في قوله تعالى : ﴿ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾ (البقرة:١٨٥) «ومعنى اللام والعطف ها هنا معنى لطيف ، هذا الكلام معطوف محمول على المعنى . المعنى : فعل الله ذلك ليسهل عليكم ولتكملوا العدة» [١] .

فهي محاولة منه للكشف عن المعنى ، وليست محاولة للوصول إلى لفظ القائل ، وكذلك كان الزمخشري حين يعبر عن المعاني المطوية يصدرها بقوله «كأنه قيل» إشارة منه إلى أنه يستكشف المعنى ، وينتقي له خير ما يستطيع من الألفاظ التي تعبر عنه . يقول صاحب الكشاف في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٥٠) : «ومتعلق اللام محذوف ، ومعناه : ولإتمامي النعمة عليكم ، وإرادتي اهتداءكم أمرتكم بذلك ، أو يعطف على علة مقدرة ، كأنه قيل : واخشوني لأوفقكم ولأتم نعمتي عليكم» [٢] .

وربما لا يستطيع أن يعبر بالكلمات عن هذه المعاني المطوية ، لأنها مما لا يحيط بها الوصف فيقول : «ليكون كيت وكيت» [٣] ، وكأن الألفاظ عاجزة عن الوفاء بكل هذه المعاني ، ومعلوم أن القائل لم يقل كيت وكيت ، ولكنها إشارة دالة فحسب ، ومن ثَمَّ فلا أجد مبرراً للحمل على المفسرين والنحاة حين يقدرون هذه المعاني ليقربوها إلى الأذهان ، وإن قصرت ألفاظهم عن الوفاء بها ، لأنها ليست سوى اجتهادات تنبه إلى المراد ، دون التقيد بالألفاظ . يقول الدكتور عفت الشرقاوي ، وهو يهجن طريقة النحاة التي سلكها المفسرون

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٢٤١/١ .
(٢) الكشاف ٣٢٣/١ .
(٣) المصدر السابق ٤٦٦/١ .

في القول بحذف المعطوف عليه،ومحاولة تقديره،ممثلاً بقوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأنعام:٥٥) : « وهذه المجاهدة التقديرية من جانب النحاة في هذه الآية إنما تحول التعبير فيها إلى تعبير نمطي عادي ، وتفقدها ما ترمي إليه في صورتها البلاغية المعجزة ، حيث تربط ربطًا مباشرًا بين التفصيل والاستبانة الكاملة ، فيأتي النحويون ـ كما رأينا ـ ليقدروا درجة ثالثة بين الدرجتين ، هي درجة الفهم المنطقي قائلين (نفصل .. ليفهموا .. ولتستبين). وهذا كله لكي يستقيم لهم أسلوب العطف كما وصفوه . ومع ذلك فإن الاستبانة هنا متضمنة لمعنى الفهم ، وتقدير (ليفهموا) الذي يقول به النحويون في هذه الآية قد يُفقد حقيقة التفصيل ذلك الإيحاء الفوري المباشر بالوضوح الكامل الذي تكتسبه من الارتباط بالاستبانة المعطوفة ، والذي هو بحسب التركيب القرآني المعجز يبدو كأنه من الوضوح والبداهة ، بحيث لا يحتاج معه السامع إلى التوقف »[1].

وإذا كان ابن الأنباري بتقدير « ليفهموا » لم يوفق في التعبير عن هذا المقدر الذي أنبأت الواو عنه ، لأن الاستبانة متضمنة لمعنى الفهم ، فليس هذا مبررًا لانتقاص هذا المسلك بوجه عام ، فهذا البيضاوي يقول في الآية : « يجوز أن يعطف على علة مقدرة ، أي نفصل الآيات ليظهر الحق ولتستبين »[2].

والاستبانة لا تتضمن معنى إظهار الحق بل تترتب عليه ، وحينئذ يتداعى الاعتراض على ذات التقدير ، أما قوله (إن التقدير يفقد الآية بلاغتها في الربط المباشر بين التفصيل واستبانة السبيل) ، فإن ذلك يعني إغفال معنى الواو ، ولا يتأتى إلا مع القول بزيادتها لتتصل العلة بمعلولها مباشرة ، وهو بالفعل أحد الآراء التي ذكرها بعض النحاة في هذه الواو ، ولا أعتقد أن هذا يتمشى مع هدف باحث يلتمس بلاغة العطف في القرآن الكريم ، خاصة أنه ينعى على

---

(١) بلاغة العطف في القرآن الكريم ص ٧٧ .

(٢) أنوار التنزيل ٣١٢/١ ، ٣١٣ الحلبي .

النحاة مسلكهم لأنهم ، كما يقول : «اضطروا إلى التأويل والتقدير ، والقول بالزيادة والحذف ، في كثير من تحليلهم الإعرابي لآيات القرآن»[1].

الإفصاح عن علة مقدرة :

يكثر في كتاب الله ورود الواو عاطفة لعلة مذكورة ، تقف الواو حائلاً دون ربطها مباشرة بما يصلح أن يكون معللاً قبلها ، وهذه الواو لو أسقطت من الكلام لصح اتصال الكلام بعدها على وجه التعليل لما قبلها ، لوجود اللام المعللة لكن توسط الواو يحول دون ذلك ، ومن ثَمَّ اختلفت الآراء في تقدير متعلق لهذه اللام تكون تعليلاً له ، أو تقدير علة محذوفة تكون العلة المذكورة معطوفة عليها .

وجار الله الزمخشري يُجوّز الاحتمالين في معظم الآيات الواردة على هذا النهج . يقول في قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (آل عمران:١٤٠) : «﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أن يكون المعلل محذوفًا ، معناه : وليتميز الثابتون على الإيمان منكم من الذين على حرف ، فعلنا ذلك ، وهو من باب التمثيل ، بمعنى : فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت ، وإلا فالله عز وجل لم يزل عالمًا بالأشياء قبل كونها ، وقيل : معناه : وليعلمهم علمًا يتعلق به الجزاء ، وهو أن يعلمهم موجودًا منهم الثبات . والثاني : أن تكون العلة محذوفة ، وهذا عطف عليه ، معناه : وفعلنا ذلك ليكون كيت وكيت وليعلم الله ، وإنما حذف للإيذان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة ، ليسليهم عما جرى عليهم ، وليبصرهم أن العبد يسوءه ما يجري عليه من المصائب ، ولا يشعر أن لله في ذلك من المصالح ما هو غافل عنه»[2].

---

(١) بلاغة العطف في القرآن الكريم ص ٦٣ .

(٢) الكشاف ٤٦٦/١ .

ونلاحظ أن العطف على علة محذوفة قدره (ليكون كيت وكيت) ، وهذا يشير إلى بلاغة الحذف ، وهي الإيحاء بكثرة حكم الله التي لا تحصر ، ولا يحيط بها الوصف ، وهي كلها لمصالح جمة ، ومنافع متعددة ، تبتغي صالح الإنسان في الابتلاء ، وإن خفيت ألطاف الله عليه ، ففي هذا الإبهام بلاغة الحذف ، وهو ما لا يؤديه تقدير لفظ بعينه . وقد فرق أبو السعود بين ما يقدر له لفظ بخصوصه ، وبين ما يترك على العموم والإبهام ، فقال : « والجملة معطوفة على علة أخرى لها معتبرة ، إما على الخصوص والتعيين ، محذوفة لدلالة المذكورة عليها ، لكونها من مباديها ، كأنه قيل : نداولها بينكم وبين عدوكم ، ليظهر أمركم ، وليعلم إلخ ، فإن ظهور أعمالهم وخروجها من القوة إلى الفعل من مبادي تمييزهم عن غيرهم ، ومواجب تعلق العلم الأزلي بها من تلك الحيثية ، وكذا الحال في باب التمثيل فتأمل ، وإما على العموم والإبهام للتنبيه على أن العلل غير منحصرة فيما عدّد من الأمور ، وأن العبد يسوءه ما يجري عليه من النوائب ، ولا يشعر بأن الله تعالى جعل له في ذلك من الألطاف الخفية ما لا يخطر بالبال ، كأنه قيل نداولها بينكم ليكون من المصالح كيت وكيت وليعلم »[1] .

فالإبهام في التقدير أوقع وأبلغ في الدلالة على تكاثر المعاني ، وتعدد الأسباب التي يبتلي الله تعالى من أجلها المؤمنين ، وانكشاف أمر المنافقين ، وما خفى من الأسرار أعظم ، فكم من الدروس تعلمها المؤمنون في وجوب التزام الطاعة للقائد ، وعدم الحرص على الدنيا ومتاعها ، مما كان سببًا من أسباب انتكاسة المسلمين في هذه الغزوة ، وتنبيه المؤمنين إلى أن الجهاد في سبيل الله ليس انتصارًا في كل لقاء ، وعلى المجاهد أن يعد نفسه لمعركة طويلة تكون سجالاً بين الحق والباطل ، حتى يتحقق وعد الله في النهاية بنصر المؤمنين . هذا وغيره مما لا يمكن حصره ، ألمح إليه حرف واحد : هو الواو ،

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢/٩٠ .

فأي تقدير لمحذوف هو بعض هذه المعاني وليس كلها ، وكم أطنب الزمخشري بالإبهام من حيث أوجز غيره بالإفصاح !! وقد عبر النسفي عن هذا المقدر المبهم بقوله : « نداولها لضروب من التدبير ، وليعلم الله المؤمنين مميزين بالصبر والإيمان من غيرهم[1] » وهو ماض مع الزمخشري في نفس الطريق .

وقول الزمخشري (للإيذان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة) يشير إلى المبادرة بالتنبيه من أول الأمر على هذه المعاني المقدرة وتكاثرها ، لأن الإشارة إلى تعدد المصالح يمكن أن تفاد بذكرها مفصلة ، ولكن يفوت غرض الإبهام بأنها مما يطول لتعدده ، ويقصر عنه البيان ولا يحيط به علم البشر[2]. وقد جرى الزمخشري على عموم التقدير والإبهام أيضًا في ما يشبه هذه الآية من قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (آل عمران:١٥٤) . يقول الزمخشري : « ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ﴾ ، وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص ، ويمحص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان فعل ذلك ، أو فعل ذلك لمصالح جمة ، وللابتلاء والتمحيص »[3] .

لكنه أحيانًا يقدر معطوفًا عليه معينًا كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ (مريم:٢١) يقول « ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً ﴾ تعليل معلله محذوف ، أي ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك ، أو هو معطوف على تعليل مضمر ، أي لنبين به قدرتنا ولنجعله آية »[4] .

فهذا التعيين ببيان القدرة لا يعبر عن بلاغة هذا العطف كما يعبر عنه الإبهام الذي تذهب معه النفس كل مذهب في تصور أبعاد هذه المعجزة ، وما ترتب عليها في حياة عيسى عليه السلام وبعد رفعه ، وإن كان جار الله قد اختار في التقدير علة تتسع لمدلولات متعددة ، لأن إبراز قدرة الله تعالى في خلق عيسى

---

(١) مدارك التنزيل ١/٢٨٧ .
(٢) انظر حاشية الشهاب ٣/٦٦ .
(٣) الكشاف ١/٤٧٣ .
(٤) المصدر السابق ٢/٥٠٥ .

ليس مقصوراً على خلقه بغير أب ، بل في حملها به على غير عادة النساء ، وفيما أعقب الولادة من تذليل النخل ، وجريان النهر ، وكلام عيسى في المهد ، وغير ذلك مما يتسع له مدلول قدرته تعالى .

وقد يلجأ الزمخشري إلى تقدير علة على أنها مجرد مثال يشير إلى المحذوف ، ولا يعينه كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ (طه:٣٩) . يقول الزمخشري : «﴿ وَلِتُصْنَعَ ﴾ معطوف على علة مضمرة مثل : ليتعطف عليك وترأم ونحوه» [1] ، فهو تخصيص أشبه بالتعميم ، لأنه جعله مجرد مثال ، وترك الباب مفتوحًا ليتصور القارئ غير هذا المعين ، أو معه ، من المعاني التي تشير إليها الواو ولا تعينها ، ولنا أن نتصور إلقاء المحبة على موسى كيف كان سببًا ـ بما ألقى الله في قلب امرأة فرعون من الحب له ـ في أن يتربى في بيت الملك ليكون دليلاً على قهر الله لفرعون ، حيث سخره لتربية من سيكون هلاكه على يديه ، ولكي يطيب قلب الأم التي استجابت لأمر الله بإلقائه في اليم فتطمئن عليه ، بل ويتربى في حجرها علنًا ، حيث لم يكن سواها يتمكن من ذلك سرًّا ، وليتحقق وعد الله لها ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ ، وغير ذلك من المعاني التي تتعاون العقول والقلوب في تمثلها ، ولا تستطيع حصرها .

وربما يترك ذكر المعطوف عليه لأنه لم يتعلق الغرض بذكره ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ (يوسف:٢١) ، فإن التمكين ليوسف هنا يقصد به التمكين له في بيت العزيز ، لأن الآية جاءت عقب قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ ﴾ وعطف قوله ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ ﴾ على معان مقدرة ، تستحضرها الواو في ذهن المتلقي ، ولكن ذكرها لا يتعلق به غرض ، لأنها وسائل لتنفيذ أمر الله تعالى في تحقيق ما علم الله تعالى يوسف

---

(١) الكشاف ٢/٥٣٧ .

من تأويل الأحاديث ، مثل أن يتربى يوسف في بيت الملك وتراوده امرأته ، ويسجن ليظهر في السجن آثار ما علم الله تعالى يوسف من تأويل الأحاديث ، فالغرض الأصيل هو هذا المذكور ، وما أدى إليه إنما هو وسائل ، والاهتمام بالنتيجة هو الذي يتعلق به الغـرض . وقد أشـار إلى ذلك أبو السعـود حيث قال : « ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أي نوفقه لتعبير بعض المنامات التي عمدتها رؤيا الملك وصاحبي السجـن ، لقـوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ﴾ ، سواء جعلناه معطوفًا على غاية مقدرة ينساق إليها الكلام ، ويستدعيها النظام ، كأنه قيل : ومثل ذلك التمكين مكنا ليوسف في الأرض ، وجعلنا قلوب أهلها كافة محال محبته ، ليترتب عليه ما ترتب ، مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ، ولنعلمه بعض تأويل الأحاديث ، وهو تأويل الرؤيا المذكورة ، فيؤدي ذلك إلى الرياسة العظمى ، ولعل ترك المعطوف عليه للإشعار بعدم كونه مرادًا بالذات »[1].

وعلى نحـو منـه مـا ذكـره الألوسي فـي قـولـه تعـالـى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ . يقول الألوسي : « ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ ﴾ عطف على محذوف يدل عليه السياق أو الحال ، لأنها متضمنة للتعليل ، أي لينفعهم وليعلم الله تعالى علمًا يتعلق به الجزاء من ينصره ورسله ، باستعمال آلات الحرب من الحديد في مجاهدة أعدائه ، والحذف للإشعار بأن الثاني هو المطلوب لذاته، وأن الأول مقدمة له »[2].

ومما ترك ذكره اعتمادًا على فطنة المتلقي في تصوره ، حيث لا يتعلق الغرض بذكره ، قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ

---

(١) إرشاد العقل السليم ٤/٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٢) روح المعاني ٢٧/١٨٩ .

﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ (الأنفال:١٧) ، فللقارئ أن يتصور مقدرًا قبل الواو فى ﴿ وَلِيُبْلِيَ ﴾ معناه : ليمحق الكافرين ، وليظهر دين الله ، ويمكّن لأتباعه في الأرض ، ويحقق وعده بإنزال العذاب بمشركى مكة الذين كانوا يستعجلون الرسول بالعذاب ، وغير ذلك مما تتفاوت في تصوره وتقديره العقول والألسنة ، غير أن الغرض الذي تهدف إليه الآية ، هو إبراز نعمة الله على المؤمنين الذين أجابوا داعي الله ، ولبوا نداء الجهاد ، دون أن تقعد بهم قلة العدد ، وتجردهم من السلاح ، عن المضى للقاء العدو الذى لا يشكو فقرًا في الرجال، ولا عوزًا في العتاد ، فلذا ذكر ما هو إكرام لهم ، ومنحة إلهية قدمت إليهم ، وكأن هزيمة المشركين ما هي إلا زيادة في إدخال المسرة عليهم ، ووسيلة إلى تحقيق آمالهم ، ولعلك تلمس في قوله ﴿ مِنْهُ ﴾ بعض الفيض من هذه المعاني ، وبذلك يتلاقى هذا الوجه مع الوجه الثاني الذي يقدر فيه فعل مؤخر للاختصاص . يقول الألوسى : «واللام إما للتعليل متعلقة بمحذوف متأخر ، فالواو اعتراضية ، أي وللإحسان إليهم بالنصر والغنيمة فعل ما فعل لا لشيء آخر غير ذلك ، مما لا يجديهم نفعًا ، وإما برمي ، فالواو للعطف على علة محذوفة أي : ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلي» [(١)] .

وحين اختلف الغرض في قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (الحشر:٥) ، اختلف الأمر في العطف والتقدير ، حيث ذكر الغرض الأصيل الذي سيقت من أجله الآية ، وهو إلحاق الله الخزي والعار بالفاسقين ، على حين ترك ذكر معاقبة المشركين في الآية الأولى ، وترك أمر المعطوف عليه لتقدير المتلقي يتصوره ، نحو : ليعز المؤمنين ، ويعجل بسقوط حصون اليهود ، وليظهر تخاذل المنافقين عن نصرة حلفائهم من اليهود ، هذه وغيرها معان تشعر بها الواو ، ولكن ترك ذكرها يوحي بأن الغرض هو تعليل هذا الفعل الذي يبدو ظاهره عملاً تخريبيًا لا يليق بحضارة الإسلام ، فانصرف البيان إليه إعلامًا منه تعالى

---

(١) روح المعاني ٩/١٨٧.

بإباحة مثل هذه الوسائل إذا احتيج إليها في كسر شوكة أعداء الله ، ممن كانوا على وشك أن يقضوا بغدرهم على المسلمين ، فجاء وصفهم بالفسق ليشعر بخروجهم على عهودهم ، وعدم التزامهم بما أشهدوا الله عليه من نصرة المسلمين وحسن الجوار معهم ، وهو الغرض الأصيل في التعليل ، لأن فيه ردًّا على تساؤل اليهود ، كما روي عنه أنه عليه الصلاة والسلام لما أمر بقطع نخيلهم قالوا : قد كنت يا محمد تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل أو تحريقها ؟ فنزلت[1].

وتأتي الواو عاطفة على مقدر لتلمح إلى أن المعطوف زيادة في الجواب ، وإنافة على ما رغب في معرفته السائل . مثال ذلك قوله تعالى في قصة العزير بعد بعثه : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ (البقرة:٢٥٩) .

فقد رغب العزير أن يرى دليلاً منظورًا على كيفية الإحياء بعد الموت كما قال : ﴿ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي أنه طلب آية يستدل بها على قدرة الله في الإحياء ، فأجابه الله إلى طلبه ، في صورة ما عاينه من الطعام والشراب الذي أمسك الله فيه الحياة ، فلم يسرع إليه التغيُّر والفساد ، وفيما شاهده من صورة الإحياء في حماره ، وهذا أقصى ما يتطلبه السائل من أدلة ماثلة على إمكان البعث ، ولكن الله تعالى زيادة في التحدي جعل من السائل نفسه آية لغيره ، بحيث بعثه بعد هذه الفترة المتطاولة من الزمن ، ليكون هو دليلاً على البعث لمن عاصروه ، وهو ما يفهم من قول أبي السعود : « أي فعلنا ما فعلنا من إحيائك بعدما ذكر لتعاين ما استبعدته من الإحياء بعد دهر طويل ، ولنجعلك آية للناس الموجودين في هذا القرن ، بأن يشاهدوك وأنت من أهل القرون الخالية ، ويأخذوا منك ما طوى عنهم من أحقاب من علم التوراة »[2].

---

(١) انظر أنوار التنزيل ٤٦٤/٢ الحلبي .

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٥٤/١ .

ومما هو زيادة في التعليل ، وإنافة على المطلوب ، وجاءت الواو لتشير إلى هذه الزيادة قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ (الأنعام:١٠٥) ، فإن تصريف الآيات يكون للإلزام بالحجة وإفحام الخصم ، والتسليم بما جاء به ، ولكن قوله تعالى : ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ جاء دليلاً على أن وضوح هذه الآيات وصل إلى درجة من إفحام المشركين وعدم قدرتهم على المجادلة لم يقفوا معها عند حد السكوت ، ولكنهم زادوا على ذلك الإقرار بالعجز ، فاتهموه بأنه يتلقى ذلك من خبير بالعلوم والمعارف يدرس عليه ، فترك ما هو الأصل المترتب على تصريف الآيات ، وذكر ما هو الزيادة . وهذا يغنينا عن القول بأن هذه اللام هى لام العاقبة والصيرورة ، بل هي لام التعليل ، والجملة جاءت لزيادة الإقرار بالعجز ، والاستدلال على إفحامهم ، لأنهم لو لم يعجزوا عن مجاراته لما قالوا ما قالوه ، كذلك لسنا فى حاجة إلى تقدير حرف نفي بلا ضرورة . يقول الخازن : «يعني : وكذلك نصرف الآيات ، لتلزمهم الحجة ، وليقولوا درست ، وقيل معناه : لئلا يقولوا درست ، وقيل اللام فيه لام العاقبة ، ومعناه : عاقبة أمرهم أن يقولوا درست يعني قرأت على غيرك» [1] .

(ومما هو دليل على زيادة كرم الله تعالى في مقابلة من يستجيب لأمره قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة:١٥٠) ، فقد قدر الزمخشري معطوفًا عليه محذوفًا هو (لأوفقكم) [2] ، فكأن جواب خشيتهم له هو حفظهم من كيد أعدائهم الذين يدبرون الإساءة لدينهم ، وتوفيق الله للمؤمنين حتى يردوا كيد عدوهم إلى نحورهم ، ثم يزيدهم على ذلك تفضلاً بأن ينعم عليهم بالموت على الإسلام ودخول الجنة ، وبذلك لا يقف الجواب عند حد حفظهم في الدنيا ، بل يجمع معه الإسعاد بنعيم الآخرة والواو هي التي ألمحت إلى هذه الزيادة .

---

(١) لباب التأويل ٤٢/٢ .

(٢) انظر الكشاف ٣٢٣/١ .

هذا الذي ذكرناه في الآيات السابقة على القول بالعطف على علة أو علل محذوفة ، أما الوجه الثاني الذي جوزه الزمخشري وغيره فهو تقدير معلل محذوف يتعلق به التعليل المذكور ، إلا أن الزمخشري يقدره مؤخراً ، والبيضاوي يقدره مقدمًا ، وقد ترتب على ذلك أن تكون الواو اعتراضية ، على تقدير الزمخشري ، وعاطفة على تقدير البيضاوي . وهو ما صرح به في قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ . يقول البيضاوي: « والعطف على علة مضمرة ، مثل : ليتعطف عليك ، أو على الجملة السابقة بإضمار فعل معلل مثل : فعلت ذلك » [1] .

وسبب الخلاف يرجع إلى أن الزمخشري يرى في تقدير الفعل مؤخراً زيادة بإفادة الاختصاص حتى يكون في إعادة ذكره فائدة . يقول القطب الرازي : « وإنما قدر المعلل متأخراً ، لأنه لو قدر مقدمًا وهو مذكور مقدمًا ، فلم يكن لحذفه وإيراد الواو فائدة، فقدر متأخراً لإفادة فائدة زائدة وهي الاختصاص »[2].

وعلى ذلك تكون الواو عند الزمخشري اعتراضية ، وهو ما صرح به في قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الفتح:٢٠) . قال الزمخشري : « فإن قلت : قوله تعالى ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كيف موقعه ؟ قلت : هو كلام معترض ، ومعناه : ولتكون الكفة آية للمؤمنين فعل ذلك » [3] ، وعليه سار أبو السعود ، حيث فرق بين الواو مع تقدير علة محذوفة ، والواو مع تقدير فعل مؤخر ، فقال في الآية السابقة : « واللام متعلقة إما بمحذوف مؤخر أي : ولتكون آية لهم فعل ما فعل من التعجيل والكف ، أو بما تعلق به علة أخرى محذوفة من أحد الفعلين ، أي : فجعل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم لتغتنموها ولتكون إلخ . فالواو على الأول اعتراضية وعلى الثاني عاطفة »[4].

---

(١) أنوار التنزيل ٢/٥٠ حلبي .

(٢) حاشية القطب التحتاني على الكشاف ١/٦١٧ .

(٣) الكشاف ٣/٥٤٧ .

(٤) إرشاد العقل السليم ٨/١١٠ .

أما البيضاوي فإنه قدر الفعل مقدمًا وجعله معطوفًا على الأول ، لأن فيه زيادة من حيث التصريح بالعلة فيه ، وهي زيادة تصحح العطف ، ولا داعي لتقديره مؤخرًا لإفادة الحصر وهو غير مراد ، لأن العلة المذكورة ليست العلة الوحيدة للفعل ، وهذا ما أبان عنه الشهاب في قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ . يقول الشهاب : « لما كان العطف هنا مخالفًا للظاهر ، لأن العلة لا تعطف على المعلل ، وقد ورد مثله في أماكن ، خُرّج على وجهين : أحدهما تقدير معلل معطوف على ما قبله ، وقدره المصنف مقدمًا على الأصل ، والزمخشري قدره مؤخرًا ، لأن ذكره دون متعلقه يقتضي الاعتناء فهو بالتقديم التقديري أليق ، وتركه المصنف رحمه الله لإيهامه الحصر ، وهو غير مقصود »[1] .

وهذا تفسير صحيح لوجهتي النظر ، غير أن عبارته توهم بأن الزمخشري يرى عطف الفعل المعلل المحذوف على ما قبله ، وهو ما قال به العلوي في حاشيته على الكشاف ، حيث صرح بأن الزمخشري يجعل الفعل المحذوف معطوفًا على ما قبله في قوله تعالى : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ (البقرة:١٨٥) ، ولم يصرح صاحب الكشاف بذلك . يقول الزمخشري : « الفعل المعلل محذوف مدلول عليه بما سبق ، تقديره ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ شرع ذلك . يعني جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر ، وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه ، ومن الترخيص في إباحة الفطر ، فقوله ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ﴾ علة للأمر بمراعاة العدة ، ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ﴾ علة ما علم من كيفية القضاء ، والخروج من عهدة الفطر ، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ علة الترخيص والتيسير ، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك »[2] .

---

(١) حاشية الشهاب ١٥١/٦ .

(٢) الكشاف ٣٣٦/١ ، ٣٣٧ .

وربما فهم العلوي عطف الفعل على ما قبله من تصريح الزمخشري بأن الآية جاءت على سبيل اللف ، فتكون الجملة بفعلها المحذوف نشرًا لما قبلها على طريق العطف بالواو . يقول العلوي : « قوله (وهذا نوع من اللف) وتقريره أن الفعل المعلل المقدر ، وهو قوله (شرع ذلك) مع العلل الثلاث ، معطوف على الجملة السابقة بالواو على طريق النشر »[1] .

ولا أرى الزمخشري في تقريره للف والنشر في الآية إلا سائرًا على منهجه من جعل الجملة اعتراضية ، لأن الإشارة في قوله (شرع ذلك) إلى الأفعال السابقة الملفوفة أعيدت على طريق الاستئناف ، ثم جاء النشر مبتدأ بقوله (لتكملوا) تعليلاً للفعل المقدر بعد الواو الاعتراضية .

الإفصاح عن المقابل المقدر :

وتأتي الواو مفصحة عن نقيض ما يذكر بعدها إيماء إلى أن المذكور هو الذي يتعلق به غرض الكلام ، لكونه أدل وأظهر في سياقه .

مثال ذلك : قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ (النحل: ٧٠) ، فقوله ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ يستدعي قسيمًا له ، ليعطف عليه ، وهو بالقطع ليس ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ ولا ﴿ يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ ، ولذا قدر الجمل له مقابلاً محذوفًا . يقول نقلاً عن شيخه : « فمنكم من يبقى على قوة جسده وعقله حتى يموت ، ومنكم من يرد »[2] .

وسر ترك المعطوف عليه ـ فيما أرى ـ هو أن الغرض متوجه إلى المذكور ، لأن سياق الآية في الكشف عن أطوار الإنسان ، وتنقله من حال إلى حال بعد بيان أطوار النبات والحيوان ، والمذكور أدل على هذا التطور ، انتقالاً من بدء خلقه لا يعقل شيئًا ، وانتهاء به إلى هذه الحالة التي يصير فيها كما يقول صاحب الكشف : « نسَّاء بحيث إذا كسب علمًا في شيء لم ينشب أن ينساه ،

---

(١) تحفة الأشراف ١/٣٥٠ .

(٢) الفتوحات الإلهية ٢/٥٨٤ .

ويزل عنه علمه، فهو كناية عن غاية النسيان، مع زيادة تصوير وبيان التنكيس، والرجوع إلى حالة شبيهة بحالة الطفولة» [1].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (إبراهيم:١٥). يقول الزمخشري: «معناه: فنصروا، وظفروا، وأفلحوا، وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم» [2]، فلما كان الغرض يتعلق بهلكة الكفار وخيبتهم، وكان نصر الله للمؤمنين مقدمة لتحقيق هذا الإيعاد ترك ذكر المعطوف عليه للإسراع بالغرض المقصود، فقد سبق هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (إبراهيم:١٣)، هذا بالإضافة إلى أن ترك التصريح بالإجابة على استفتاح الرسل الذي هو طلب النصر من الله تعالى فيه نكتة أخرى، وهي أنهم من الله بمنزلة من لا يرد له دعاء، فصار طلبهم من الله النصر بمثابة ما لا ينتظر الجواب، لأنه متحقق بمجرد طلبه، وهو ما نطق به الحديث الشريف «رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره».

ومما ترك فيه المقابل لأن المذكور هو المراد قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ ﴾ (هود:١١٦).

يقول صاحب الكشاف: «فإن قلت: علام عطف قوله ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾؟ قلت: إن كان معناه واتبعوا الشهوات كان معطوفًا على مضمر، لأن المعنى: إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد، واتبع الذين ظلموا شهواتهم، فهو عطف على نهوا» [3]، فالآية جاءت في معرض الحديث عن مشيئة الله تعالى وحكمته في إيجاد فريق من الأشقياء، ممن طبعوا على الفساد، واتباع الهوى، لكي تتم كلمة الله في أن يملأ جهنم من الجنة والناس

---

(١) الكشف ١/١٢٤١.
(٢) الكشاف ٢/٣٧١.
(٣) المصدر السابق ٢/٢٩٨.

أجمعين ، ومن ثَمَّ ترك التصريح بمقابل هذا الفريق ممن يحضون على الخير ، وينهون عن الفساد لعدم تعلق الغرض بذكرهم .

وقد يترك ذكر المعطوف عليه اكتفاء بمقابله ، والإلماح إليه بحرف العطف ، إيحاء بأنه مما لا يستدعى توجه الخطاب إليه لامتثاله ، ومبادرته إلى ما يطلب منه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ (البقرة:٢٣)، فقد قدر البقاعي معطوفًا عليه مقابلاً للمذكور ، ونصه : «أي فإن كنتم من ذوي البصائر الصافية ، والضمائر النيرة ، علمتم بحقيّة هذه المعاني ، وجلالة هذه الأساليب ، وجزالة تلك التراكيب ، أن هذا كلامي ، فبادرتم إلى امتثال ما أمر ، والانتهاء عما عنه زجر ، وإن كنتم في ريب»[(١)].

وهو ـ فيما أرى ـ أدق مما ذهب إليه الزمخشري من جعل الآية معطوفة على ما قبلها ، باعتبار تلك حجة على إثبات وحدانية الله ، وهذه حجة على إثبات النبوة [(٢)] ؛ لأن تقدير البقاعي يوحي بأن الناس في تلقي آيات الكتاب ، والاستجابة له فريقان ، أحدهما لم يتردد في قبوله ، والإسراع إلى تنفيذ ما جاء به ، وهم لا مجال لتوجيه الاحتجاج إليهم ، وفريق يظهر الارتياب فيه ، وإن كان في أعماقه لا ينكر أنه الحق ، ولذا جاء التعبير بإن الدالة على الشك ، وكأن ارتيابهم دعوى يتظاهرون بها ، وليست حقيقة يؤمنون بها ، وهذا يؤيد قوله تعالى في أول السورة : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (البقرة:٢) ، وفيه تعرية لأنفسهم ، وكشف لدخائلهم ، فهم لا يكذبونه ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون .

الواو الفصيحة في القصص القرآني :

ولهذه الواو دورها في إيجاز القصص بطيّ الجمل ، اعتمادًا على ذكرها في مواضع أخرى تكررت فيها نفس القصة ، أو اعتمادًا على أنها لا تخفى على

---

(١) نظم الدرر ١/٥٥ .

(٢) انظر الكشاف ١/٢٣٨ .

فطنة القارئ ، أو الإشارة إلى أن المطوي تجاوز حد الإحصاء ، أو الإلماح إلى المفاجأة بوقوع الحدث على غير ترقب ، وغير ذلك من الأغراض التي لا تحصى بلاغتها في الذكر الحكيم .

فمما ترك ذكره من المعطوفات عليه ، وهو جمل متعددة ، اعتمادًا على ذكرها في موضع آخر ، باعتبار أن القرآن كله كسورة واحدة ، تتكامل آياته ومعانيه ، قوله تعالى : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ (ص:٤٢،٤٣). يقول أبو السعود : « ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ ﴾ معطوف على مقدر ، مترتب على مقدر آخر يقتضيه القول المقدر آنفًا ، كأنه قيل : فاغتسل وشرب ، فكشفنا بذلك ما به من ضر ، كما في سورة الأنبياء »[1].

فالقصة واحدة ، وردت أكثر تفصيلاً في سورة الأنبياء ، وأوجز هنا ما فصل هناك في قوله ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ (الأنبياء:٨٣،٨٤).

وعليه أيضًا مع الإيماء إلى المسارعة والمبادرة في الامتثال قوله تعالى : ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ (الأعراف:١١١-١١٣) . يقول أبو السعود : « ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ بعدما أرسل إليهم الحاشرين ، وإنما لم يصرح به حسبما في قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ (الشعراء:٥٣) للإيذان بمسارعة فرعون إلى الإرسال ، ومبادرة الحاشرين والسحرة إلى الامتثال »[2] .

ومما طوي فيه المعطوف عليه إيماء إلى أنه مما لا يقع عليه الحصر ، قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ (النمل:١٥) فإن

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢٢٩/٧ .

(٢) المصدر السابق ٢٥٩/٣ .

القول ليس معطوفًا على إيتائهما العلم ، وإلا كانت الفاء أولى لدلالتها على التسبب ، وإنما هو معطوف على معان مقدرة أبهمها النظم الكريم . يقول الزمخشري : «فإن قلت : أليس هذا موضع الفاء دون الواو كقولك : أعطيته فشكر ، ومنعته فصبر ؟ قلت : بلى ، ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم ، وشيء من مواهبه ، فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد ، كأنه قال : ولقد آتيناهما علمًا ، فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة ، وقالا الحمد لله الذي فضلنا» [1] .

وقد أشار الألوسي إلى بلاغة هذا الإيجاز فقال : «وفي الطي إيماء بأن المطوي جاوز حد الإحصاء ، ويعلم مما ذكر أن هذا الوجه لاختيار العطف بالواو أولى مما ذهب إليه السكاكي من تفويض الترتيب إلى العقل» [2] ، وهو يرد بذلك على السكاكي الذي قال فيه الآية : «ويحتمل عندي أنه أخبر تعالى عما صنع بهما ، وأخبر عما قالا ، كأنه قال : نحن فعلنا إيتاء العلم وهما فعلا الحمد تفويضًا استفادة ترتب الحمد على إيتاء العلم إلى فهم السامع ، مثله في قم يدعوك ، بدل قم فإنه يدعوك» [3] .

وكأن السكاكي يرفض أن تؤدي الواو ما تؤديه الفاء الفصيحة ، لأنه ذكر هذه الآية في معرض حديثه عن بلاغة الفاء الفصيحة ، وذكر ما قاله الزمخشري من العطف على مقدر في الآية ، ثم عقبه بذكر هذا الاحتمال ، ليرد به على إفادة الواو هذا المعنى . وقد أحسن الألوسي في تضعيفه ، لأنه دون بلاغة الأول ، خاصة أن إفصاح الواو عن مقدر ورد في أكثر من موضع كما ذكرنا ، سواء كان هذا التقدير حقيقة أو توصلاً به إلى المعاني التي تلمح إليها الواو . يقول الألوسي في هذه الآية تعليقًا على القول بطي الجمل فيها : «وهل هناك على ما ذكره العلامة تقدير حقيقة أم لا ، قولان ، وممن ذهب إلى الأول من يسمي هذه الواو الواو الفصيحة» [4] .

---

(١) الكشاف ١٣٩/٣ .
(٢) روح المعاني ١٧٠/١٩ .
(٣) مفتاح العلوم ص ١٣٤ .
(٤) روح المعاني ١٧٠/١٩ .

ومما طوي فيه المعطوف عليه في القصص القرآني إشارة إلى أنه مما لم يتوقعه أحد المتحاورين تصويرًا لوقع المفاجأة عليه ، وتجسيدًا للحظة الذهول من حدوث ما لم يترقبه ، ما حكاه الله من الحوار بين الكافر والمؤمن حيث يزهو الأول بما يمتلك من الثراء والنعيم ، وينصحه الثاني بتذكر نعمة الله عليه ، لكنه يهزأ بنصيحته ، وينتهي الحوار بقول المؤمن كما حكاه القرآن ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ (الكهف:٤٠،٤١) ، وكأن ذلك الرجاء مما يترقبه المؤمن ، ويتطلع إلى وقوعه ، ولكن الكافر هازئ بهذا الرجاء ، واثق من أن الفناء لن يمتد إلى جنته أو كما قال ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ ، فإذا به يفاجأ بما لم يتوقع ، ويتملكه الذهول من هول ما فوجئ به ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ (الكهف:٤٢) .

يقول أبو السعود في قوله ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ : «وهو عطف على مقدر ، كأنه قيل : فوقع بعض ما توقع من المحذور ، وأهلك أمواله ، وإنما حذف لدلالة السياق عليه ، كما في المعطوف عليه بالفاء الفصيحة» [1] ، فما توقعه المؤمن وحدث كان مفاجأة للكافر الذي كان واثقًا بأن السوء لن يمتد إلى جنته ، فكان للواو التي أفصحت عن هذا المقدر وطوي ذكره ، بلاغتها في وقع هذه المفاجأة ، وتصوير ما أصاب صاحب الجنتين من الذهول .

ومما طوي فيه المعطوف عليه ، وهو أكثر من جملة ، للاقتصار على ما هو موضع العبرة والعظة من أحداث القصة ، ثقة في فطنة القارئ ، وتنبهه إلى ما لم يصرح به ، قوله في قصة أهل الكهف : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/٢٢٣ .

إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ (الكهف:١٦،١٧) .

فإن قوله ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ ﴾ ينبئ عن جمل مطوية تصور الامتثال للأمر ﴿ فَأْوُۥٓا۟ ﴾ . يقول الجمل : «قيل : هنا ثلاث جمل محذوفة ، تقديره : فأووا إلى الكهف وناموا ، وأجاب الله دعاءهم حيث قالوا ربنا .. إلخ»[1]، وواضح أن هذا المعطوف عليه المقدر مما لا يتعلق الغرض بذكره مع وجود الدليل الواضح عليه ، إلى جانب ما يوحي به من سرعة الامتثال لأمر الله .

---

(١) الفتوحات الإلهية ١١/٣.